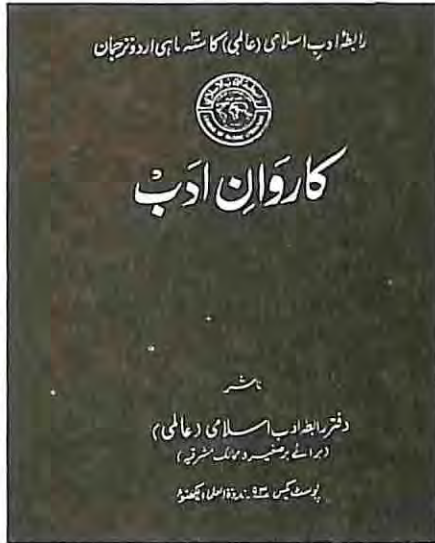


قراءة في: قافلة الأدب

مجلة الأدب الإسلامي الأردنية / العدد الثاني

د. سمير عبد الحميد إبراهيم*

تُعد مجلة «قافلة الأدب» التي تصدر باللغة الأردنية إضافة إلى الكتابات المهمة في مجال الأدب الإسلامي، ومن هنا كانت إطلالتنا عليها، وقد قدم للعدد الثاني الذي بين أيدينا، الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي. تضمن العدد الثاني ثلاثة مقالات، مع ثلاث صور فنية ومنطومتين، وبعدها مقالات مختارة، من الندوة التي عقدت في مدينة بنارس بالهند، تحت عنوان: الخصائص الأدبية والفنية للحديث النبوي الشريف.



مجلة الأدب الإسلامي الأردنية / العدد الثاني

في تقديمه للعدد الثاني وتحت عنوان:

وتمضي قافلتنا على الدرب...

كتب الشيخ محمد الرابع الحسني ما يلي:

الأدب الإسلامي أدب متكامل، معبر عن جميع جوانب الحياة، يستحق اهتمام الجميع وتقديرهم، فهو من ناحية يبيىء سبل السمو بالذوق الأدبي، ومن ناحية أخرى يقدم تحليلاً كاملاً للحياة، ومستلزماتها الضرورية على أساس الفطرة السليمة، وقد يتساءل البعض: لماذا كلمة إسلامي مع الأدب؟! فالأدب فن حرٌّ، فلماذا يقيد بسلاسل مهما كان شكلها ولونها ونوعيتها؟ ولماذا يوضع عليه «قيد» الإسلامية؟! من المعروف أن مجال الأدب هو العالم المحيط بنا، وحياتنا المتنوعة، ثم شخصيتنا الذاتية، هذه هي المجالات الثلاثة، التي تختلف تصورات الناس فيما يتعلق بأهميتها وحقيقتها، فتصورات المتمسكين بالدين في جانب، وتصورات المعارضين للدين في جانب آخر، وحين برز تأثير

الثورة الصناعية والفكرية في أوروبا على العالم، وكذا تأثير الفلاسفة وأفكارهم، حدث تبدل خاص في عقلية العالم المتمدن، فعارضت أوروبا الدين، وأضرت كثيراً بهاها من أثر وبهاها من قوة بالأساس الديني للتصورات الأدبية، ثم ظهرت فلسفات ونظريات حرة، لا تتفق مع تصوراتنا الدينية، ولا مع عقليتنا الشرقية، وحين حدث تغيير في

(*) أستاذ الأدب الأردني بعمادة البحث العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وله مؤلفات عديدة منها: الأدب الإسلامي الأردني، إقبال والعرب، وغيرها.

عن الله وحتى لا نُؤذي البشر، وحتى لا نُصبح فريسة
لرغبات النفس وشهواتها، وعلينا أن نقبل هذا الالتزام وإلا
أصبحنا سبياً في الاضرار بالنظام الإنساني للعالم كله، ضرراً
ليس من السهل إصلاحه أو تلافيه...

هذه هي الدعوة التي ندعو إليها تحت عنوان الأدب
الإسلامي.

والأدب في الأصل يصدر عن وجدان الإنسان، ويؤثر
فيه، والله تعالى وهب كل إنسان - تقريباً - طاقة وجدانية -
سواء أكان هذا الإنسان باحثاً ومفكراً أم جاهلاً أُمياً، ولهذا
السبب كان مجال الأدب واسعاً ورحباً وفسيحاً، والأدب قد
يحقق لوجدان المخاطب اللذة والإقناع، وقد يكون الهدف
من طرح فكرة معينة للأديب، وقد يقدم سبل السكينة
والهدوء، وقد يتم عن طريق الأدب إصلاح الناس، وقد
يحدث التغيير في الأمة كلها عن طريق الأدب أيضاً، أو
توضع الأمة على منعطف جديد، أو على اتجاه مضاد لما هي
عليه، وأحياناً يحرك بداخلها مشاعر كراهية القوى الأجنبية
فتعمل الأمة بحماس لطردها. وهكذا، فالأدب قوة، وطاقة،
ووسيلة مؤثرة، وهو رد فعل طبيعي للضرورات
والمستلزمات الإنسانية.

إن بداية الصورة أو الشكل الأدبي لدى البشر كانت
أصلاً في أماكن العبادة، في شكل مناجاة وأدعية للخالق
عز وجل، ثم انتشرت الصور والأشكال الأدبية في مختلف
جوانب الحياة.. ومن العجيب أن يأتي بعض الناس اليوم
ليقول إنه لا علاقة للأدب بالحياة الدينية، ولا علاقة له بما
بين العبد والمعبود... وما هذا القول إلا إغماض العين عن
رؤية الحقيقة الواضحة، ولكن هذا الإغماض عمّ وانتشر،
عن طريق معارضي الدين من أهل أوروبا، ولهذا كانت
رابطة الأدب الإسلامي، وكانت دعوتها، بل كان واجبها
المتمثل في بيان هذه الحقيقة الواضحة.

الأفكار، فيما يتعلق بالخالق سبحانه وتعالى، وبالكائنات،
أي المخلوقات والإنسان، كان من الطبيعي أن يُحدث ذلك
تغيراً في الأدب، التي تتصل بمجالاته بالحديث عن الخالق
والمخلوقات والإنسان، ثم ظهرت نظريات متنوعة في
الأدب، تتفق مع التصورات الإلحادية لأوروبا، فيما يتعلق
بالخالق والمخلوقات والإنسان، ونتيجة للتسلط السياسي
والفكري لأوروبا على العالم، وجدت سلسلة من التغيرات
في القيم الأدبية والثقافية، تحطم من جرائها العديد من
المناهج والنظريات وتشكلت مناهج ونظريات جديدة،
وبدأ الأدباء يننون قلاعهم الأدبية بالرمال، على شاطئ
بحر الأدب، قلاع الكلاسيكية، وقلاع الرومانسية، من

الأدب يصدر عن وجدان الإنسان ويؤثر في وجدان المتلقي مباشرة

بعدها. ثم القلاع الأخرى التي تضمنت نظريات ظهرت
في شكل الحداثة بصورها المختلفة... وبصرف النظر عن
رأينا في هذه النظريات فإنه يجب على أهل الشرق عندنا،
وعلى المسلمين بصفة خاصة، أن يفهموا أن التنوع في
اختيار أساليب الأدب، وإقامة أسس نظرية تتعلق
بالأدب، تقوم على أساس الالتزام بالهدي السماوي في
التعبير عن كل ما يتعلق بالخالق والمخلوقات والإنسان،
ولا بد من التمسك بهذا المبدأ، وبعبارة أخرى يجب ألا
يبعدها الأدب عن الحق والإنصاف، وألا يُبعد الأدب
الإنسان عن ربه، يجب ألا يجعلنا فريسة للأهواء، ولدينا
من الأصول والأسس ما يفوق جميع ما لدى العالم أجمع،
تلك الأصول والأسس القويمة التي ذكرها الإسلام لينبهننا
إلى هذه الحقيقة، وهي أصول بقدر ما تعطي الأدب الحرية
الكاملة والسعة، فهي أيضاً تضع له ضوابط، حتى لا نبعد

الصورة الأدبية الأولى أخذت أشكال المناجاة لله سبحانه وتعالى

أبدأ مع هذا العنوان، فالعنوان لا يدل على ما أدرج تحته من موضوع، فالكاتب الفاضل يناقش في بحثه تطور الكتب المنهجية في مجال التعليم لدى الأطفال في شبه القارة الهندية، فيذكر «قاعدة بغدادية» الكتاب الذي وضع لتعليم حروف الهجاء لإعداد الأطفال لقراءة القرآن الكريم، وبعدها تناول المؤلف الكتب التي تضمنت موضوعات القراءة للتلاميذ، محلاً بعد ذلك الكتب الأردنية التعليمية.

ويلاحظ أن هذا المقال كسابقه لا يتفق فيه العنوان مع المضمون.

أما المقال الثالث فهو للأستاذ سيد حبيب الحق الندوي بعنوان «الأدب والدين، قراءة نقدية لروائع الأدب العالمي».

أوضح الكاتب في بداية بحثه أن الأدب لا يمكن أن ينفصل عن العقيدة، وأن روائع الفن الأدبي في العالم ارتبطت -بشكل أو بآخر- بالعقيدة، فالكوميديا الإلهية لدانتى لم تجد شهرتها بسبب أنها شعر يعبر عما وراء الطبيعة، بل لأن الشاعر مزج فيها أيضاً العقائد الدينية، وينطبق هذا على الإلياذة والأوديسا، وعلى ما كتب أيضاً في الآداب الإسلامية، سواء بالعربية أو بالفارسية.. وهذه الروائع الأدبية تفقد جاذبيتها، إذا حُذف منها العنصر الديني، مهما كان شكله، فلو حذفنا من أشعار إقبال ما فيها من مشاعر وأحاسيس دينية فلن يبقى فيها شيء، بل لن تكون أشعاره هي أشعار إقبال التي تعودنا على قراءتها.

وللأسف يكتفي الباحث -كما قال- بعرض نماذج من الآداب العالمية الغربية معتذراً بضيق الوقت!!

ورابطة الأدب الإسلامي ليست الهيئة الأولى التي تتصدى لهذا الأمر، فقد بدأت محاولات سابقة من أهل الأدب الصالحين، والرابطة تود دفع هذه المجالات بطريقة أسرع وأشد، وكانت البداية عقد ندوات علمية عن الأدب الإسلامي، ثم كانت الخطوة التالية إصدار مجلة فصلية للتعريف بالأدب الإسلامي... وهذا هو العدد الثاني من هذه المجلة.

والمقال الأول في هذا العدد كتبه الأستاذ ضياء الحسن فاروقي الأستاذ بالجامعة المليية الإسلامية بدلهي - الهند وعنوان المقال: «معيّار النقد في الأدب الإسلامي» تناول فيه الكاتب بعض النظريات والحركات الأدبية في الغرب، من خلال النظريات السياسية والاجتماعية، التي أثرت في الأدب الغربي، وعن طريقها كان التأثير في الأدب الشرقي، ثم أشار المؤلف إشارة مجملة إلى الأصول الأساسية للنقد في الأدب الإسلامي. ثم عرض الكاتب بعدها لمذهب الرومانسية، والمذهب المادي، والوجودية وغيرها، ووصل إلى نتيجة مفادها أن الأدب العظيم لا يعرف المكان ولا الزمان، لأنه أدب آفاقي وخالد، ويشرح بعدها الأدب من خلال مقالة تولستوى عن ماهية الأدب، ويؤكد على نظرية تولستوى بما قاله العلامة محمد إقبال، من أن الأدب ليس من أجل السرور العقلي والروحاني، بل الأدب يهب قوة البصيرة التي في ضوئها يمكن للإنسان صاحب القلب الحساس والعقل المفكر أن يتقدم تجاه تحقيق هدفه...

ويتهيء المقال دون أن يعبر الكاتب عن العنوان الذي وضعه له، وربما للمقال تنمة!!

والمقال الثاني بعنوان «جذور الأدب الإسلامي» للأستاذ عبد الله عباس الندوي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، وما عرضه المؤلف تحت عنوان بحث، لا يتناسب

بعض روائع الأدب العالمي تفقد أهميتها لوحذفت منها الجانب الديني

وهكذا يعرض للإلياذة، والأوديسا، والفردوس المفقود والكوميديا الإلهية ثم يتوقف.

وكم كان جميلاً لو أخذ نموذجاً واحداً وقارنه بمثيله مما كتب بالعربية والفارسية والأردية، مثل الكوميديا الإلهية، وجاويدنامة لإقبال؛ ليوضح التشابه في الموضوع، والاختلاف في طريقة المعالجة، مع بيان تأثير الدين في كل منها، ونأمل أن يطلع الأستاذ حبيب الحق الندوي على هذه القراءة ليحقق هذا الرجاء.

أما الصور الفنية التي عرضت بعد المقالات السابقة فأولها ترجمة رائعة لخطبة طارق بن زياد إلى الأردية، بقلم ضياء حسن الندوي، بقسم اللغة العربية بالجامعة المليية الإسلامية، تحت عنوان «خطبة طارق بن زياد في مرآة الأدب»، والصورة الثانية لدعاء طارق بن زياد فاتح الأندلس على لسان الشاعر محمد إقبال. والصورة الثالثة ترجمة لما كتبه المنفلوطي بعنوان ((غرور ذبابة)) والترجمة للشيخ شمس الحق الندوي.

وفي القسم الثاني من المجلة، عدد من المقالات المختارة عن الخصائص الأدبية والفنية للحديث الشريف، يتصدرها تقديم للشيخ محمد الرابع الحسني الندوي، ثم مقال للشيخ أبي الحسن الندوي، عرض فيه لبعض الخصائص الأدبية والتعبيرية للحديث النبوي مع التمثيل لكل خاصية، مستشهداً بأقوال الجاحظ في تعريفه للكلام البليغ، مع ترجمة بعض أحاديث الرسول ﷺ ترجمة رائعة، وكتب الشيخ الندوي:

«أوضح رسول الله ﷺ مفهوم الإحسان بلغته النبوية فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وفي موضع آخر قال ﷺ: «إنما الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة وقال: إنما الأعمال بالنيات ... وقال أيضاً: اليد العليا خير من اليد السفلى» وقال: لا تحن يمينك على شمالك ... الإثم ما حاك في صدرك ... دع ما يريبك إلى ما لا يريبك .. الدين النصيحة» هل أشار الجاحظ إلى غير هذا الكلام النبوي من شرح مفهوم البلاغة؟ لا والله، لا يوجد أي كلام أبلغ من كلام رسول الله ﷺ، فقد أضاءت الكلمات بنور الحكمة النبوية، ونالت العبارات الجمال والجلال، بتوفيق رب العزة وتأييده، حتى إن القلب الجامد يذوب خضوعاً وتعظيماً. فمن خصائص الكلام النبوي أنه رغم ما يتميز به من إعجاز فإن الإنسان البسيط يستمع إليه فيفهمه من فوره، ولكنه لا يستطيع أن يقلده، وهذا هو مفهوم البلاغة عند ابن المقفع.

ويوضح الشيخ أبو الحسن بعد ذلك وصف الجاحظ لنظام الكلام المعجز الذي صدر عن رسول الله ﷺ، ويشير الشيخ الندوي بعد ذلك إلى حقيقة مهمة فيقول:

«إن مجموعة الأحاديث النبوية تملأ الفراغ في الأدب العربي، الفراغ الذي ظهر من جراء ضياع النماذج الشريفة الأدبية العربية، وهكذا حفظت كتب الحديث الثروة الأدبية، التي لا مثيل لها - وكان من الممكن أن تضيع - حتى يوم القيامة، وهي ثروة لها ميزة عظيمة، فهي محفوظة بسندها المتصل، ورواياتها المتواترة، ولهذا فهي تمثل أعظم وسيلة معتبرة للاطلاع على اللغة العربية الفصحى، من خلال كتب الحديث التي حفظت نماذج الأدب الرائعة، داخل الجزيرة العربية.

وفي هذه الكتب قصص متصلة، وأخرى قصيرة مختصرة، وكلها من أجل نماذج اللغة العربية، التي كان العرب الأوائل يستخدمونها في حياتهم اليومية، ويعبرون

بها عن عواطفهم وأحاسيسهم، وطالب الأدب العربي سيجد فيها بلا شك وفي موضع واحد بلاغة النطق العربي، وقدرة اللغة والبيان والتعبيرات الدقيقة، والوصف الدقيق، وعدم التكلف والسلاسة، وسوف يجد قلبه وقد رق، وعقله وقد شف، فيعترف علناً بروعة هذه البلاغة والفصاحة، والجمال والجلال.

وتمثل الروايات والقصص الطويلة ذخيرة أدبية قيمة، فيها عظمة الفن، وهي مرآة لبلاغة الراوي العربي وأمانته، بالإضافة إلى كمال الوصف، ودقة التعبير، وهنا يتمتع الراوي العربي «بطول النفس»، ففي حكاية واحدة يظل يعبر عن معانٍ ومطالب لا حصر لها، مشاعر وأحاسيس مرهفة، ومناظر متنوعة، فلا تتفلت اللغة منه، ولا تظهر اللكنة في البيان، وكأن الألفاظ والتعبيرات مادة طيبة بين يديه، يشكلها كما يريد، وكأنها نموذج للفنون الجميلة على قدر عالٍ من الترتيب والتوازن حيث يقوم الفنان بتحريك الفرشاة في مهارة تجعل الألوان تنطق ويمكنك أن تجد مصداق ذلك من القصة التي تصور آلام كعب بن مالك وأحزانه بعد أن تخلف عن غزوة تبوك، ثم بعد أن نهى رسول الله ﷺ عن كلامه هو وصاحبيه اللذين تخلفا معه، ويمكنك أن تجد ذلك في قصة الإفك، على لسان أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وقصة الهجرة النبوية التي جاءت على لسانها أيضاً، وكذلك ما مرّ بأبي بكر الصديق في طريق الهجرة، ووصول القافلة النورانية إلى المدينة، واستقبال أنصار المدينة لها - استقبالا لا مثيل له، وما طرأ على المدينة من فرح وسرور، بقدوم سيد المرسلين، وهناك موضوعات أخرى عديدة تمثل نماذج أدبية رائعة مثل حديث صلح الحديبية، وحديث الإيلاء، وحكاية حليلة السعدية، فهذه وغيرها مما يستحق الدراسة في فصول الأدب، لكن أنظار نقادنا وأهل الأدب عندنا لم تقع عليها، ولهذا لم تجد لها مكاناً على صفحات كتب الأدب.

وفي مقاله عن الأدب الإسلامي عرّف الدكتور مفتدي حسن أزهرى وكيل الجامعة السلفية «الأدب الإسلامي»، وأشار إلى مكانة علم الحديث في الهند، وجاء مقاله مختصراً مفيداً، أما بحث الشيخ سعيد الرضى الأعظمي الندوي عن أدب الرسول ﷺ في الذكر والدعاء فكان في الأصل مكتوباً بالعربية، وقد ترجمه إلى الأردية الشيخ محمد إبراهيم الندوي، والبحث يزخر بنماذج الحديث النبوي والإشارات الواردة في القرآن الكريم إلى أهمية الدعاء.

- أما مقال الشيخ ضياء الدين إصلاحي «فصاحة الرسول الأكرم وبلاغته» فهو مقال طيب ومفيد، يقول الباحث:

«ملكة البلاغة ومعرفة اللغة ملكة فطرية عند رسول الله، وهي هبة من الله لرسوله، إذ يقول ﷺ: «أدبني ربي فأحسن تأديبي» ونقل عن قوله: «أنا أفصح العرب»

كُتِبَ الحديث الشريف حفظت لنا ثروة أدبية من روائع النثر الفني

وقوله: «بعثت بجوامع الكلم»، ويستشهد الباحث رأي القاضي عياض في كتابه «الشفاء»، كما نقل رأي الجاحظ في إعجاز القرآن والبلاغة. وأعقب الباحث هذا بأمثلة رائعة من أحاديث الرسول ﷺ تلقي الضوء على بلاغته. كما أثبت الباحث أمثلة من أقوال الرسول ﷺ صارت مضرب الأمثال:

إنما الأعمال بالنيات ... لكل امرئ ما نوى

الحياء من الإيمان ... رفقا بالقوارير

لا يلدغ المؤمن من جحرٍ مرتين ... إلخ.

«هات يدك أبايعك على الإسلام».
وهكذا كان تأثير بلاغة رسول الله ﷺ.

ويتناول الباحث بعد ذلك الوصف المميز لجوامع
الكلم، واستعمال الألفاظ في محلها، والجانب النفسي في
الأحاديث النبوية ويمثل لذلك ببعض الأحاديث تمثيلاً
رائعاً، مقررّاً أن الأحاديث النبوية تصل إلى أفضل
مستوى أدبي عرفه الإنسان، وهي معجزة أدبية باللغة
العربية.

- وكتب الشيخ عبد الوهاب خُلجي بحثاً عن
المحاسن الأدبية للأحاديث النبوية، وأعقبه بحث للأستاذ
محمد رائد الندوي عن المكانة الأدبية للأحاديث النبوية،
أما الدكتور سيد عبد الباري فقد كتب عن حسن كلام
سيد المرسلين، وكتب الدكتور محمد إقبال حسين بحثاً
بعنوان: «مطالعة أدبية في الحديث النبوي».

- وكتب الأستاذ شمس تبريز خان بحثاً بعنوان
«جوامع الكلم من الناحية الفكرية والأدبية»، فتطرق إلى
بيان آراء نقاد الأدب العربي في البلاغة النبوية، فعرض
لرأي المبرد، وأبي حيان التوحيدي، والشريف الرضي، وعبد
القاهر الجرجاني، ومصطفى صادق الرافعي، والعقاد،
وعبد الرحمن عزام، ومصطفى الزرقا وغيرهم، ثم أكد
الباحث ضرورة الاهتمام بالجانب الفكري للحديث
النبوي.

- وآخر مقالات «القافلة» مقال لفضل الرحمن
أنصاري عن صورة العواطف الإنسانية في الحديث
النبوي، واختار الكاتب صورة أسرى بدر، الذين كان من
بينهم العباس عم رسول الله ﷺ، وكذا صورة الأسرى في
معركة أحد. وعرض المؤلف لمواقف تنم عن مدى رفقته
ﷺ، ومدى حساسيته، وبين مشاعر رسول الله ﷺ
الإنسانية القوية، ومثل لذلك بأمثلة معبرة.

- وكتب الشيخ أسير أدروي عن المكانة الأدبية
للأحاديث النبوية فأوضح تميز الأحاديث النبوية من حيث
مطابقتها للوقت وللمكان وللظروف المحيطة، وسهولتها،
ومن حيث اختيار الألفاظ وترتيب الجمل، وجاذبية اللغة
والبيان، وروعة الأسلوب، وجمال الأداء، ويضرب الكاتب
مثالاً رائعاً على التأثير البلاغي لكلمات رسول الله ﷺ حين
قدم ضحاد الأزدي إلى مكة، أخبره أعداء الإسلام بأن
بمحمد مساً فقال ضحاد لرسول الله:

«يا محمد إني أرقى هذا الريح، فهل لك؟!».

ففهم رسول الله من هذه العبارة أن قائلها من خارج
مكة، وفهم حكايته، فلم يشأ إلا أن قال له:

«إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا
مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، أشهد أن لا إله إلا الله
وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله».

ملَكة البلاغة موهبة فطرية عند رسولنا الذي أدبه الله فأحسن تأديبه

سمع ضحاد الأزدي هذا الكلام الحلو فأخذته الحيرة،
وطلب من رسول الله أن يعيد على سمعه ما قال فأعاد، ثم
طلب منه أن يُعيده، فأعاده ثلاث مرات، وكان ضحاد من
قبيلة على دراية واسعة باللغة العربية وأدبها والشعر
العربي، فقال ضحاد الأزدي مُعَبِّراً عن حيرته الشديدة:

«لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول
الشعراء، ما سمعت مثل كلماتك هؤلاء لقد بلغت قاموس
البحر».

ثم قال ضحاد: